

نحن وسحر ميداس؛ العالم الإسلامي وعلم الاستغراب النبدي¹

الخلاصة:

تهدف هذه المقالة إلى تقويم موضوع "علم الاستغراب = علم معرفة الغرب" تقويمًا نبديًّا، استنادًا إلى الأرضية الثقافية والتاريخية في المجتمعات الإسلامية. تفيد المعطيات المتوافرة أنَّ "الاستغراب = علم معرفة الغرب" مقوله وضعية نبديّة بشكل عام، مضادة للاستشراق. أمَّا الوجه النبديُّ لهذه المقوله فمحض بالدول الإسلامية، التي تقف موقفًا حذرًا من الغير، لإثبات هوبيتها والمحافظة عليها؛ وأهمُّ ما يميّز خطاب الاستغراب من خطاب الاستشراق أنه وسيلة داععية أكثر من كونه وسيلة هجومية. فموضوع الاستغراب النبديُّ في العالم الإسلامي يذهبُ أبعدَ من غيره من الباحث، كالهويّة، والمقاومة الوطنية في التصدّي للإمبريالية والاستعمار، وهو نوعٌ من أنواع الدفاع عن المبادئ والقيم الإسلامية في مواجهة الغرب. إنَّ السؤال الذي يُطرح هنا، إنْ نحن أخذنا في الحسبان هيمنة الغرب على مختلف العلوم، لا سيّما علم الاستشراق، هو التالي: هل هناك إمكانيةٌ من خلال المعطيات الموجودة أن نشهدَ ظهور خطاب مختلف ومضاد؟ الجواب سلبيٌّ. لأنَّ علم الاستغراب في العالم الإسلامي، خطابٌ صعبٌ مسارُه وسائلُه، ويحتاج إلى استنباط البرامج والاستراتيجيات النظرية والمعرفية المنتجة محلّيًّا. يتوجّب على هذا الخطاب الناجم عن الظروف التاريخية المعاصرة، وتحولاتها المتعاقبة في لاوسي الأمة أن يستفيد — مع المحافظة ضمنًا على أخلاقيّة المقاومة — من الأدوات والوسائل العلمية المرتكزة على أرضية صلبة، لاستيلاد النظريّات.

الكلمات المفتاحية: علم الاستغراب، علم الاستشراق، العداء للآخر، الإسلام، علم الاستغراب النبدي.

1) المقدمة: إنَّ الغرب كوجود اجتماعيٍّ وتاريخيٍّ (حدًّا أدنى) أو كبيئة ذات رؤى واستراتيجيات خاصة (حدًّا أقصى)، أمرٌ واقعٌ لا شكٌّ فيه. وهو بحاجة على نحوٍ مستمرٍ إلى أن يُعرف ويدرس. الواقعُ أنَّ كلَّ المجتمعات

¹. البحث مستلٌّ من مجلة غرب شناسى بنىادى [علم الاستغراب التأسيسى]، الصادرة عن مركز بحوث العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، السنة الخامسة، العدد الأول، ربيع وصيف العام 1393هـ [2014م]، ص 61-79.

– الباحث الدكتور أحمد كلاته سادati: دكتوراه علم اجتماع، كلية العلوم الطبية شيراز.

– المترجمة الأستاذة الدكتورة دلال عباس: أستاذة الحضارة الإسلامية والأدب المقارن، الجامعة اللبنانيّة.

الإنسانية في العصر الحاضر قد تم اجتياحها، وهي سواء على الأصعدة الإنسانية المحدودة كالسلوك الفردي وأنماط العيش، أو على مستوى القضايا الكبرى الاقتصادية والثقافية، خاضعة كلُّها في عالم اليوم لسيطرة مفاهيم الغرب وإيديولوجيتها. هذه الإيديولوجية لها مفاهيمها وقيمها الخاصة، وتتميز بعلم وجود خاص، وعلم معرفة خاص أيضاً. ولها تعريفٌ مشخص للإنسان. ولكشف مفاهيم هذه الإيديولوجية هنالك حاجة إلى علم منهجي خاص.

في خضم عدوانية الغرب الكاسحة في العصر الحاضر، فإن حوزة العلم والمعرفة هي الساحة التي تتحقق من خلالها مطامع الغرب وأهدافه، وهذا الموضوع هو الأكثر بروزاً في العصر الحديث. إنَّ علوم الغرب قد وضعت جميع الحوزات العلمية، ابتداءً من العلوم الطبيعية والرياضيات وصولاً إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية بمختلف تشعباتها وفروعها، تحت مظلة الإيديولوجية. وبغض النظر عن المفاهيم التي تشكل المبادئ الأساسية لهذه العلوم، من الواجب القول إنَّ هذا الاجتياح، اجتياحٌ كاملٌ ب مختلف المعايير. وأحد أبرز محامل هذا الاجتياح "علم الاستشراق". فعلم الاستشراق خطابٌ يسعى من خلال مسار علميٍّ، وبصورة منهجية، إلى خلق شرقٍ كسيٍ التوجه (الخطاب الأولي للاستشراق)، أو شرقٍ يضع نفسه في خدمة الغرب (الخطاب الاستشرافي المتأخر والاستعماري). ومن المؤكَّد أنَّ هذين المدفين كانوا في العصور الوسطى أي منذ القرن السادس عشر الميلادي وما بعده، محورَ الحراك والتفكير الاستشرافيَّين. معنى أن يكون الشرقُ شرقاً في خدمة الكنيسة والاستعمار.

من الطرق أو الاستراتيجيات المؤدية إلى كشف علم الاستشراق مفهومياً ونظرياً، وكشف غيره مما يُحاك في الغرب، علم الاستغراب. هذا البحث يرى إلى علم الاستغراب خطاباً مختلفاً مفهومياً عن علم الاستشراق. على ذلك أيضاً أنَّ مفهوم الاستشراق نشط في نطاق المباحث والنظريات الغربية. في حين أنَّ المفكَّر [غير العربي] إذا شاء أن يتعرَّف الغرب، أو أكثر من ذلك إذا أراد أنْ يتصدِّي لنقد الغرب، لا سيما الفكر الغربي، يحتاج إلى أسس نظرية وإلى منهجية مغايرة لمبادئ الاستشراق. ومن المؤكَّد أنَّ الاستشراق سبيل من السبل المؤدية إلى معرفة الغرب وعلاقته بالشرق.

إنَّ مبدأ نقد الغرب وتفوييه يختلف في العالم الإسلامي على نحو خاص، عنه في البلدان الشرقية الأخرى ذات الإيديولوجيات المختلفة. ومن أسباب ذلك أيضاً سببٌ مرتبطٌ بتميز الرؤية الإسلامية إلى العالم أو الإيديولوجيا الإسلامية من الإيديولوجيا الغربية. ففضلاً عمما يميِّز "الشرق" بالمعنى العام من الغرب والفكر الغربي، فإنَّ الإسلام

والإيديولوجيا الإسلامية أكثر تجدّداً وحضوراً من المعتقدات الشرقية الأخرى كالمندوسيّة والكونفوشيوسية والبوذية، سواءً كان ذلك بمعنى الدين كدين، أو بالمعنى الأشمل للعلم والمعرفة. وسبب ذلك أيضاً الاختلاف الماهوي بين الإيديولوجيا الإسلامية التي هي في الأصل ومن حيث المبدأ غير علمانية، والإيديولوجيات والمعتقدات الأخرى التي تُظهر كما هو ملاحظ نوعاً من التساهل بالنسبة إلى العلمانية، على الرغم من عدم تصريحها بتبنّيها رسميّاً. في الإسلام، استناداً إلى كتابه المقدس، أي القرآن الكريم، يمكن بصعوبة تعرّف تفاسير العلمانية، بناءً على ذلك، هنالك شكلان من التضاد بين الشرق والغرب: تضاد عامٌ كليٌّ، أي أنَّ الشرقَ شرقٌ والغربَ غربٌ، وتضادٌ خاصٌّ متعلّقٌ بال الحالات المعرفية والإيديولوجية الرؤوية في العالم الإسلامي.

هذا البحث يسعى إلى تقويم أبعاد علم الاستغراب وتحدياته في العالم الإسلامي. أمّا سؤال البحث فهو التالي: ما هي الأمور الأساسية التي تميّز الإسلام من الغرب؟ وما هي التحديات التي تواجه علم الاستغراب في الظروف الحالية؟ سيحاول هذا التحقيق أن يجيب عن هذين السؤالين متسلّحاً بالأدلة، وبعين ناقدة. أمّا الفرضية فهي أنَّ علم الاستغراب في الإسلام مختلف عنه في الرؤى والإيديولوجيات الشرقية غير الإسلامية.

2) الغرب، الإسلام والتاقضيات البنوية

إنَّ الغرب بمعنى المفهومي العام، بعيداً من النطاق الجغرافي، الخاص، مجموعة بلدان، أو هو قسمٌ من العالم. والغرب بهذا المعنى أبعد من الواقع التاريخي والاجتماعي؛ علماً أنَّ الغرب بمنظار علم المعرفة، نظرٌ تفكير تحقق في إطارٍ تاريخي معين وفي نطاق جغرافي خاصٌّ، وهو على مستوى رفيع من التحليل، الذي يمكن أن يتم بغض النظر عن البيئات الجغرافية. الحد الأقصى الذي يمكن أن يعطى لمعنى الغرب هو أنه بنية مفهومية Conceptual construct، ناجمة عن الأوضاع والأحوال التاريخية والاجتماعية في القرون الخمسة الأخيرة، إنما تعود رؤويّاً وإيديولوجيًّا إلى المفاهيم الأدبية والفلسفية اليونانية. هذه البنية المفهومية تحتوي علومها الخاصة: علم الوجود وعلم المعرفة، علم الإنسنة وعلم القيم، وعلم المنهج. على هذا الأساس، الغرب هو مفهومية بالفعل. هوية دالة ليس فقط على مفاهيم معرفية خاصة، أو بنية تاريخية خاصة، بل هي دالة على رؤية إلى العالم مختلفة. والحاضنة التي نمت فيها مفاهيم "الغرب" القيمية هي العلم والفكر الحديثان.

بناءً على ما تقدم، إنَّ الغرب بِنِيَّةٍ مفهوميَّة التحَمَّت بِقِيمِ التَّفْكِيرِ الْحَدِيثِ، وَهِنَّ يُجْرِيُ الْكَلَامَ عَلَىِ الْفَكِيرِ الْحَدِيثِ إِنَّمَا نَقْصَدُ الْفَكِيرَ الْغَرَبِيَّ. وَفِي تَقْوِيمٍ "إِيمَانٌ وَكَلَاتَهُ سَادَاتِيٌّ"¹، أُخْضَعَتْ خَصْوصِيَّاتُ الْفَكِيرِ الْغَرَبِيِّ لِلتَّقْوِيمِ، لَا سِيمَّا: أَصَالَةُ الْعِيْنِيَّةِ وَالْإِدْرَاكِ الْحَسَّيِّ، وَالنِّسْبِيَّةِ، وَالْفَكِيرِ الْإِنْسَانِيِّ الْمُحْوَرِ، وَالثَّنْوِيَّةِ وَالْعِلْمَانِيَّةِ. أَمَّا شَايْغَان² فِي تَقْوِيمِهِ فَقَدْ رأَىَ أَنَّ عَلَمَ الْغَرَبِ عَلَمٌ عَدُوَانِيٌّ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ اِكْتِشافُ الْبَارُودِ. فَاكْتِشافُ الْبَارُودِ فِي الْصِّينِ مِنْذَآلَافِ السَّنِينِ، لَمْ يُؤَدِّ إِلَىِ اِكْتِشافِ الْقَنْبِلَةِ، فِي حِينَ إِنَّ مِثْلَ هَذَا الْاِكْتِشافَ فِي الْغَرَبِ الْحَدِيثِ جَعَلَ وَسِيلَةً لِلْسَّيْطِرَةِ عَلَىِ الْغَيْرِ. هَذِهِ الْخَصْوصِيَّاتُ تَجْسِدُتْ فِي الْغَرَبِ فَكِيرًا سَلْطُونِيًّا وَعَدُوَانِيًّا، لَا سِيمَّا فِيِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ.

إِنَّ طَرِيقَةَ مُواجهَةِ الْغَرَبِ كَحَضَارَةٍ لَهَا سَماَهَا الْخَاصَّةُ الْمُذَكُورَةُ آنَّفًا، تَخْتَلِفُ عَنِ اسْلُوبِ المُواجهَةِ الَّذِي اعْتَمَدَتْهُ الْحَضَارَاتُ السَّابِقَةُ تَجَاهَ بَعْضِهَا، فَالْيُونَانُ وَإِيْرَانُ وَمَصْرُ وَالْمَهْنَدُ وَالْصِّينُ وَبَلَادُ مَا بَيْنِ النَّهَرَيْنِ، تَحَارَّبَتْ فِي مَرَاحِلٍ تَارِيْخِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، إِنَّمَا بِاسْلُوبٍ مُخْتَلِفٍ. وَبِشَكْلٍ عَامٌ، كَانَتِ الْحَضَارَةُ الْأَدْنِيَّةُ تَسْعَى إِلَىِ اِكتِسَابِ الْعِرْفَةِ مِنِ الْحَضَارَةِ الْأَرْقَى عَلَمِيًّا وَمَعْرِفِيًّا وَبِنَيًّا اِجْتِمَاعِيًّا. الْمَثَالُ الْمُحْسُوسُ فِي هَذَا السِّيَاقِ هُوَ الْمُواجهَةُ الَّتِي جَرَتْ بَيْنِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْحَضَارَةِ الْيُونَانِيَّةِ فِيِ الْعَصْرِ الْعَبَاسِيِّ، وَنَشَوْءُ حَرْكَةِ التَّرْجِيمَةِ مِنِ الْلُّغَاتِ الْأَجْنبِيَّةِ لَا سِيمَّا الْيُونَانِيَّةِ بِالْعَرَبِيَّةِ. وَمَا نَتَجَعَّدُ عَنِ ذَلِكَ مِنْ إِيجَادِ الْأَرْضِيَّةِ الْمَعْرِفِيَّةِ الْلَّازِمَةِ لِانْبَعَاثِ عَصْرٍ سُمِّيَّ بِشَكْلِ عَامٍ عَصَرَ "الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ".³

مَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ اسْلُوبِ مُواجهَةِ الْحَضَارَةِ الْغَرَبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ لِسَائِرِ الْحَضَارَاتِ، لَا سِيمَّا الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ تَخْتَلِفُ عَنِ التَّوَجُّهَاتِ وَالْأَسَالِيبِ الْقَدِيمَةِ. فَالْحَضَارَةُ الْجَدِيدَةُ فِيِ الْغَرَبِ ذَاتُ بِنِيَّةٍ عَدُوَانِيَّةٍ، وَلَهَا خَطَابُهَا الْخَاصُّ. هَذِهِ الْحَضَارَةُ عَلَىِ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا اِبْنَتْ عَلَىِ الْمَفَاهِيمِ الْأَدْبَرِيَّةِ وَالْفَلْسُفِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ مِنِ نَاحِيَّةِ، وَعَلَىِ الْمَسِيحِيَّةِ الْعِلْمَانِيَّةِ مِنِ نَاحِيَّةِ ثَانِيَّةِ، طَرَأَ عَلَيْهَا فِيِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ نُوْعٌ مِنِ التَّحُولِ الْتَّارِيْخِيِّ، أَبْرَزُ وَجْوهُ الْعَدُوَانِيَّةِ وَالْسَّيْطِرَةِ. فِي هَذَا الْخَطَابِ كُلُّ مَا هُوَ غَيْرُ غَرَبِيٍّ مِنْ مَفَاهِيمٍ وَمَقْوِلَاتٍ وَنَظَرِيَّاتٍ، يُعَدُّ غَرِيبًا، أَجْنبِيًّا، مُنْحَطًا، وَيَتَوَجَّبُ أَنْ يَرْتَقِيَ عَلَىِ النَّمَطِ الْغَرَبِيِّ، وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ إِدْوارَدُ سَعِيدُ فِيِ رَأْيِهِ الْإِسْتَشْرَاقِ يُؤَكِّدُ هَذِهِ الْمَقْوِلَةَ.⁴ إِنَّهُ خَطَابٌ كُلُّ بِنِيَّةٍ غَيْرِ غَرَبِيٍّ فِي

¹. إِيمَانٌ وَكَلَاتَهُ سَادَاتِيٌّ، 1392 ش [2003].

². شَايْغَان، 1386 ش [2007].

³. يَجِبُ أَنْ نُشَرِّرُ أَنَّ الْأَسَسَ الَّتِي شَيَّدَتْ عَلَيْهَا الْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ هِيَ تَعَالِيمُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ النَّبِيَّيَّةِ، الَّتِي حَثَّتْ عَلَىِ طَلَبِ الْعِلْمِ. كَانَتِ الْعِلُومُ الْيُونَانِيَّةُ وَالْمُواجهَةُ هَذِهِ الْبَنَاءُ الْمَعْرِفِيُّ لِلْمُسْلِمِينَ، أَمَّا الْبَنَاءُ الْأَسَاسِيُّ الَّذِي تَشَكَّلَ فَهُوَ حَضَارَةٌ جَدِيدَةٌ مُخْتَلِفَةٌ.

⁴. Saïd, 1977.

داخله يجب أن تُمحَّصَ وتحوَّلَ إلى بُنَى غربية. وعلى هذا الأساس يجب أن يتمَّ تغريب كلّ شيء، ليس فقط حوزات العلوم والمعرفة، بل جميع مجالات الحياة الإنسانية، من أبسط أنماط السلوك الإنسانيّ وصولاً إلى البني الاجتماعيّة والسياسيّة الكبري. هنا يجدر بنا أن نطرح السؤال التالي: هل بالإمكان استخدام الأساليب والطرق التقليديّة نفسها التي اعتمدتها الحضارات السابقة في مواجهة هذه الحضارة؟ منظار هذا البحث، المواجهة بالطرق القديمة قاصرة وعاجزة عن المحافظة على الحضارات غير الغربية، وفوق ذلك، ستؤدي إلى القضاء على مكوّنات هذه الحضارات، وإذابتها في الحضارة الغربية. لقد وقف الغرب بما يحمل من صفات، أبرزها عدوانيّته، في مواجهة الشرق، لا سيّما العالم الإسلاميّ، وأبرز ميادين المواجهة في هذا الخضم هو الإسلام.

إنَّ المواجهة بين الشرق والغرب كما أشرنا من قبل مواجهةٌ بين إيديولوجيتين أو روئيتين إلى العالم. يرى افتخار زادة "أنَّ التناقض بين الشرق والغرب هو في الأصل تناقضٌ بين فطريَّتين وبين إيديولوجيتين، وبين ثقافتين وفكريَّتين، وأخيراً وليس آخرًا، إنَّ غايةَ الكمال لدى كُلٍّ منهما مضادةٌ لغايةَ الكمال لدى الآخر"¹. على هذا الأساس هنالك تضادٌ بنويٌّ بين الشرق والغرب على جميع الأصعدة المتعلقة بعلم الوجود، والمرتبطة بعاهة الواقع، وماهية الإنسان، والمهدف من الخلق، وما إلى ذلك. وقد أكدَ عددٌ كبيرٌ من المحققين على أوجه التناقض المبدئيَّة بين الإسلام والغرب على صعيد كُلٍّ من علم الوجود وعلم المعرفة، وعلم القيم، وعلم الإنسنة².

إيمان وكلاته ساداتي³ يريان أن لا إمكانية لإيجاد نقطة مشتركة في المبادئ الأساسية لعلم المعرفة بين الفكر الغربي والإيديولوجيا الإسلامية، ولو جود تناقضات جديّة مستعصية في المفاهيم الأساسية بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي، لا يمكن ملاحظة أي باب مشترك بين هذين الخطابين الفكريَّين المختلفين. الإسلام والغرب أُطْرُهما مختلفة، والأُطْرُ المختلف تعرّض مفاهيم مختلفة ومتمازية، وتقدّم تخليلات مختلفة عن المعطيات التماثلة. إنَّ متانة هذه

¹. افتخار زادة، 1376 ش [1997 م]، ص 17.

². على سبيل المثال: إيمان وكلاته ساداتي، 1389 ش [2010 م]، و 1390 ش [2011 م]؛ زاهد وكلاته ساداتي، 1391 ش [2012 م]؛ غلشني، 1388 ش [2009 م].

Jafari, 1992; choudhury 1995, 1997, 1998, 2007 and 2010; Sardar, 1977; Kamali, 2004.

³. إيمان وكلاته ساداتي (1392 ش [2013 م]).

الأُطْر المعرفية، التي تتضمن بشكلٍ أساسِي مفاهيم وجودية، محكمةٌ إلى حدٍ أَنَّا إِنْ أَرْدَنَا عرَضَ المفاهيم الإلهيَّة¹ في إطار مادِّيٌّ، لَنْ تكون المخرجات سُوى استنباطات علمانية من المفاهيم اللاهوتية. على سبيل المثال في الإسلام، مفهوم الحرية، والحرية من المفاهيم التي أكَّدت عليها شرعة حقوق الإنسان الحديثة في الغرب. مع ذلك، الحرية في هاتين الرؤيتين الفكريتين تعبَّر عن مفاهيم مختلفة. والاختلاف المعنويٌ هنا سببه الاختلاف في الرؤى والأُطْر. يقول جعفرى في مقارنته بين النظريتين الإسلامية والغربية حول مفهوم الحرية:

يقرُّ الفكر العربيُّ الحرية الفردية المطلقة لبني البشر، في حين أنَّ الحرية الفردية والحرية العامة على السواء في الفكر الدينِي الإسلاميِّ وفي النظام القيميِّ الإسلاميِّ محدودة ومحصورة ضمن الحدود التي وضعتها الشريعة.²

وصف شودوري أيضًا مبادئ الفكر الإسلامي وأصوله بأنَّها مناقضة للفكر الغربي³، فهو يرى أنَّ الفردانية (Individualism)، والثنوية (Dualism) خاصَّيتان لا يمكن إنكارهما في الفكر الغربي، وهما مضادتان للفكر الإسلامي؛

تبثُّ المعطيات التاريخية وجودَ صراع دائم في الحوزة العلمية (الاجتماعية)، أحدُ طرفيها المنهجية الفردانية (Methodological individualism) المبنية على العدوانية الغربية المخور، وفي الطرف الآخر الإيديولوجيا التوحيدية الواقع في إطار الإسلام. إنَّ النظام في الغرب تارِيخيًّا وبمعتقداته الوضعية، معتمدٌ في استمرارِيه ومركزِيه على عالم قد تفردَ في حين أنَّ الإسلام إيديولوجياً تامةً متکاملة تنهل من ظواهر فعلية مبنية على التوافق العام، مع التأكيد على محورية العلم في بناء العالم والأنظمة الموجودة فيه.⁴.

لقد انتهى الأمر بالعلم الغربي إلى ظهور بعض الخصوصيات، كأصالَة العينية، وتحولَ العلم إلى علم صنعيٍّ (Man made) والمأزق المعرفي للعلم، والتعددية (Pluralism) والفووضية (Anarchism). وعلى العكس من ذلك، في الإيديولوجيا التوحيدية وعلم المعرفة التوحيدية (Tawhidic epistemology) ووحدانية العالم غائيةُ الوجود والعلم هي الخاصية الذاتية للعلم وللمعرفة العلمية. فالعلم في الفكر الدينِي لا ماهية بشرية له، وإنما هو مبنيٌ على القانون الإلهي (Divine law). في مثل هذه الرؤية تفقدُ كلُّ من أزمة العلم المعرفية، والعلمانية

¹. جوادي الآملي، 1387ش [2008م].

². Jafari, 1992, p. 332–333.

³. Choudhury, 1995, 1997, 1998, 2007 and 2010.

⁴. Choudhury, 1998, p. 19.

الدنوية (Secularism)، وأصالة العينية، والغوضوية مفهومها، وينظر الإنسان إلى ساحة العلم على نحوٍ يجعله يدرك غاية الوجود ومعناه.

3) خطاب الاستشراق و"الإسلام" الذي يريد الغرب:

كما أشرنا من قبل، الاستشراق مفهومٌ طرحته إدوارد سعيد منذ أربعة عقود. مرجعية هذا المفهوم خطابٌ توليفيٌّ علميٌّ سياسيٌّ واجتماعيٌّ، تشكلَّ في الغرب منذ سبعة قرون، لتوصيف الشرق، وبالأخصِّ العالم الإسلاميِّ، على النحو الذي يريد الغرب. ويربط سعيد الاتجاهات الاستشرافية المتأخرة بالقضايا السياسية في العالم الغربيّ، يقول:

سياسيًّا بذل الغرب أقصى جهوده ليقف في وجه الإسلام. ومن المؤكَّد أنَّ القومية العربية كانت في الحرب العالمية الثانية حركةً أعلنت كرهها وعداءها للإمبريالية الغربية؛ ولি�صفَّي حسابه معها ويتقمَّ منها، كثُفَّ جهوده لإبراز القضايا والمسائل التي تجعل الإسلام مقبولاً لديه¹.

الاستشراق، خطاب العلم والقوّة. لقد بذل الغرب ورجال الكنيسة الجهد الحثيثة، اعتماداً على فوّقهما، لتقديم المعرفة التي يرغبان بها عن الإسلام، لذلك بحثوا عن مواطن الاختلاف والتمييز:

إنَّ جوهر الاستشراق يُبني على أساس الفصل والتمييز بين الشرق والغرب، أمّا مهمَّة هذا التمييز فتشتَّت سيادة الغرب وتفوقه على الشرق...الحقيقة أنَّ الاستشراق أو نظريات الغربيين حول الشرق، كانت انعكاساً لتحكمَّ الغرب وسيطرته على الشرق، ولطالما سهلَت هذه السيطرة².

على الرَّغم من أنَّ موضوع الاستشراق بنظر زماني يعود تاريخه إلى ستة قرون قبل الميلاد³، لكنَّ الاستشراق كنشاط منظم وعاديٍّ يعود إلى العام 1933م، حين قرر المجتمع العلميُّ المسيحيُّ في فيينا افتتاح كرسٍّ في كلِّ جامعة من جامعات عواصم الغرب الكبرى لتعليم اللغات العربية واليونانية والعبرية، ليصبح بالإمكان التغلغل بين

¹. سعيد 1361ش [1982م]، ص54.

². م.ن، ص 12 و 13.

³. زماني، 1388ش [2009م].

العرب، وتصيرهم¹. يصور دسوقي أيضًا أربعة مراحل للاستشراق: 1) المرحلة الأولى بعد فتح المسلمين الأندلس، وازدهار الحياة العلمية في تلك الديار؛ 2) المرحلة الثانية بعد الحروب الصليبية، حتى القرن الثامن عشر الميلادي؛ 3) المرحلة الثالثة من منتصف القرن الثامن عشر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية؛ 4) والمرحلة الرابعة بدأت بعد الحرب العالمية الثانية، ولا تزال مستمرة. وللمرحلة التي أعقبت الحروب الصليبية خصوصيتها².

إنّ الشرق الذي احتلّه هذا الخطاب شكلًّا موضوع بحثٍ وتحقيقٍ لعدد كبير من منتقدي الاستشراق، وبالأخصّ إدوارد سعيد، الذي كان على رأس مفندٍ موضوع الاستشراق. يرى سعيد "أنّ الاستشراق كما يدلّ تاريخه، قد بذل المساعي الحثيثة ليحول التقين والفرضيات إلى حقائق" لا جدال حولها³. هذه الإملاءات والفرضيات موجّهةً بصورة عامة إلى العالم الإسلاميّ لأنّ الاستشراق توليف خطابين هما: الخطاب المسيحيّ/اليهوديّ والخطاب الاستعماريّ. "إنّ بصمة الاستعمار في الاستشراق بارزةً للأسباب والدوافع نفسها التي تحضر فيها الكنيسة"⁴. وعلى الرّغم من غلبة التوجه الاستعماريّ في مفهوم الاستشراق المتأخر، لكنّ مبادئه بشكل عام متستّرة بالتوجهات الكنسية التبشيرية التي كانت تسعى إلى تنصير العالم الإسلاميّ:

يجد الباحث في تاريخ الاستشراق، أنّ عليه أن يخطو أولى خطوات البحث من الكنيسة، فيعلم أنّ الجيل الأول من المستشرقين كان من الرهبان والقساوسة، ومن ثمّ يصل إلى واقع مفاده أنّ بعض المستشرقين كانوا منذ البداية ولا يزالون من اللاهوتيّين المسيحيّين واليهود⁵.

إنّ التبشير المسيحيّ والاستشراق تياران متكملان ومتمايزان، لا يمكننا الفصل بينهما؛ فهذا يفتح الطريق بما يضعه في متناول الآخر من تحقّقات ومباحث ومعلومات، وذلك يقدم الدعم بما يزرعه من شكّ في العقائد والأصول الإسلامية الأساسية، وفي الحياة العقائدية والأخلاقية للمسلمين، ليتمكن من نشر المسيحية في أوسعاتهم وتنصيرهم⁶.

¹. مقدمة عسكري خانقاہ فلادوند على كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد، 1361ش [1982م].

². دسوقي، 1376ش [1997م]، ص 2-61.

³. سعيد، م.س، ص 78.

⁴. افتخار زادة، م.س، ص 17.

⁵. دسوقي، م.س، ص 61.

⁶. م.ن، ص 179.

إن الاستشراق خطاب احتل حيزاً واسعاً من النشاطات الإنسانية، من كتابة التاريخ وتدوينه، إلى الالهوت فالفن، لا سيما السينما، ومجموعة من الطموحات العالمية التي سعت في أوج عزّها إلى تسخير كل شيء، وبالأخص "غير" [الآخر]. في كل عمل من هذه الأعمال، بحسب أرضيته، بذلت المساعي الحثيثة لتقديم المسوّغات لتحقير الشرق وبالأخص الإسلام. وانتهاك حرمة الرموز الإسلامية، لا سيما نبى الإسلام صلّى الله عليه وآله وسلم؛ زرع الشك في وحيانة القرآن، ومدح أنظمة سياسية محددة في التاريخ الإسلامي، ومن ضمنها الحكم الأموي؛ تأسيس منابر في الجامعات الأوروبية باسم منبر العلوم الإسلامية التاريخية؛ تعزيز الصراع المذهبي، والتناقضات الداخلية في الإسلام؛ تشويه شخصية مسلمي الشرق الأوسط في العصر الحاضر؛ التحرير بمجدوى المفاهيم المبدئية في الإسلام كالحجاج والجهاد؛ تقديم صورة عن الإسلام إرهابية ومناقضة للحضارة والمدنية؛ تعزيز بعية النخب والعلماء المسلمين للعلوم التي ينتجها الغرب، والتي تعالج مختلف المواضيع الإسلامية، وغير ذلك... إن خطاب الاستشراق محور الكتابات التاريخية والفلسفية واللاهوتية، والرواية والقصة، والفن ولا سيما السينما¹.

4) الاستغراب وأبعاده

يمكننا أن نعرف شكلين عاميين للاستغراب: النقيدي وغير النقيدي. إذا تقرر أن يُنمّى علم الاستغراب ويعزز بصفته أحد فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية، فالحاجة ماسة إلى التسليم بواقع مفاده أن الاستغراب يختلف موضوعاً وأسلوباً عن الاستشراق، علمًا أن لا مجال لإنكار كون الاستشراق والاستغراب وجهين لعملة واحدة. فطرح خطاب الاستشراق مثلاً وتقويمه، يشكل جزءاً من موضوع الاستغراب. وحين يتم تعریف وتقویم الماهية العدوانية للغرب، من الطبيعي أن تتوضح من خلال هذا التعريف ماهية الغرب أيضًا. لهذا السبب يؤمن آهيسكا بالحوار والتفاعل بين الاستغراب والاستشراق. ففي كلا الاتجاهين يمكن طرح علاقات القوة السلطوية. موضوعات مثل "الأننا" و"الآخر"². مع ذلك، في الظروف والأوضاع الحالية، الاستشراق ماهيته "عدائية"، والاستغراب ماهيته "دفاعية"، لذا يجب القول إن الاستغراب لا يمكنه أن يلجأ في تقويمه للغرب إلى الأساليب والأنمط الاستشرافية. من ناحية أخرى، وبناءً على المباحث المذكورة آنفاً، والقائلة إن إيديولوجيا الشرق غير عدوانية، الاستغراب يختلف عن الاستشراق معنى وتوجهًا.

¹. سعيد، م.س؛ دسوقي، م.س؛ مختار زادة، م.س.

². آهيسكا، 2010م.

إن نحن عدنا إلى المصادر والنصوص العلمية يمكننا العثور على تعريف عام للاستشراف: أي خطاب العلم والسلطة الذي يسعى إلى تنظيم ديار الشرق الأسطورية على النسق الذي يريد؛ لكن في ما يتعلق بالاستغراب لا وجود لتعريف واضح لا لبس فيه. من بين الباحثين الشرقيين بذلَّ كلُّ من آهيسكا من تركيا وتوكلِي طارقي من إيران، جهوداً لعرض نمط من الاستغراب في وطنه. نمط لا بدّ من أن يقدّم تعريفاً للاستغراب. آهيسكا، في كتابه الذي تطرق فيه إلى تقويم الاستغراب في تركيا، عرّف الاستغراب أنه أبعد من موضوع الاختيار من الحضارة الغربية، وأنه أبعد من المقاومة أو الثورة في مواجهة الغرب، كما هو الحال في الشرق الأوسط. هو يرى "أنَّ الاستغراب استراتيجياً ونحو وتكنيكال ذات اتجاهين خطابيًّا وغير خطابيًّا، يستخدمها "الشرقيٌّ" ردًا على الغرب. بالنسبة إلى تركيا، الاستغراب طريق للعودة إلى الأصالة، التي قبضت عليها عملية التحديث، وهو في الوقت عينه مسعيًّا لمواكبة التاريخ المعاصر¹.

بالنسبة إلى آهيسكا الاستغراب ليس فقط مرشدًا للسياسة بمعناها المحدود، بل هو المرشد لكمٌّ كبير من المواقف بدءًا من تنشئة الأطفال، ومن العلاقات الأسرية وصولاً إلى المُؤيَّدين القومية والدينية، وفي أداء النخب كذلك من خلال بث البرامج الإذاعية². لذا فإنَّ علم الاستغراب الذي يقصده آهيسكا إنما هو نوعٌ من العودة إلى الذات بجذاء قوَّة الغرب مالك العلم والتقالة الحديدين. أمّا توكلِي طارقي فله نظرية مختلفة إلى موضوع الاستغراب في إيران. يمكن وصف نظريته بأنَّها غير نقدية كليًّا، تأتي في سياق عرض معرفة الإيرانيين بالغرب عرضاً وصفياً، كما أنه استناداً إلى مقالة كول³ "الاستغراب اللامائيٌّ"، وعلى مفهوم "العقلانية الغربية" لدى فيبر، تطرق إلى تاريخ تعرُّف الإيرانيين الغربَ منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي، وما بعده؛ إنَّها رؤية بشكل عام غير نقدية للغرب⁴.

في التحقيق الذي أجراه سنوغراز حول موضوع البوذية والديانة البوذية في اليابان وعلاقة هذا الموضوع بالاستشراف والاستغراب، اعتمد مسبقاً نهجاً يتراوح بين النقد والمسايرة، وقدّم التعريف التالي للاستغراب:

¹. آهيسكا، م.س، ص 41.

². آهيسكا، م.س، ص 45.

³. Cole, 1992.

⁴. طارقي توكلِي، 2001 م.

"الاستغراب" مصطلح يمكن استخدامه لوصف استعانة آسيا بالغرب؛ وهو مفهوم غير مضاد للاستشراق¹.

وهو يقول بنوع من التساهل بالنسبة إلى الاستغراب في تقويمه له في بلاده:

إنّ إحدى مشكلات ظاهرة "الاستغراب" عدم التمييز بين القومية اليابانية وخطاب المستشرقين الغربيين بقصد البوذية².

يتبين من فحوى الكلام أنّ الاستغراب لدى سنوغراز شكل آخر مختلف عن الاستغراب لدى آهيسكا وتوكلي طارقي. ويمكن عدُّ هذا النوع من الاستغراب شكلاً آخر من استغراب الغربيين أنفسهم. لا ينظر إلى الاستغراب بصفته عدوًا وإنما بصفته بنية خاصة أنتجتها قرون خمسة من العمل الفكريّ. في هذا النوع من الاستغراب:

1- ليس هنالك من منحٍ خطابيٍّ بالنسبة إلى موضوع "الغرب" وإنما صدّى للتوجّه الذي يجعل الغربُ فيه ذاته موضوعاً ذاتياً، لا ليسيطر على موضوعه بل ليعرفه لآخرين.

2- إنّه توجّه مبنيٌّ بشكل عامٍ على النرجسيّة³، ومسعىً لتعريف الغرب بصفته مرشدًا لآخرين، برشدهم إلى طرق العمل.

3- الغرب هو المحرر الذي تدور حوله الأمور المعرفية بأجمعها.

4- ارتقى بنفسه من المستويات الفكرية إلى المستويات الإيديولوجية، ليصنع لنفسه مفاهيمها الإيديولوجية.

على العكس من هذا التوجّه غير النقديّ، أو الضئيل نقدُه، يُبرز فين الوجه النقديّ للاستغراب، المبني على الأطُر الفكرية لميشيل فوكو، والذي كان الأساس الذي ارتكز عليه إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق. يقول فين آخذاً في الحِسبان موضوعي الاستعمار والرأسمالية في تعريف الاستغراب:

¹. سنوغراز، 2003م، ص11.

². م.ن، ص274-275.

³. Narcissism

إن الاستغراب من خلال هذه الرؤية فضاءً مفهوميًّا وتاريخيًّا، يؤلف حكايته الخاصة عن الموضوع وحكايته الخاصة عن التاريخ، هذه الحكاية يمكن أن تصبح هدفًا لعدائية الحداثة، وأن تتأثر بها على مستوى العالم، بسبب الرؤية إلى العالم بناءً على المخطط الذي وضعه الحداثة والاستعمار الأوروبي¹.

يتبين بوضوح من خلال تعريفِ إن الاستغراب الذي يرمي إليه ليس أنموذجًا من المعرفة النقدية للغرب، بوصفه (أي الغرب) حيًّا مكانياً مختلفاً عن الشرق، وإنما يتضمن نظرةٌ نقديةٌ إلى حدٍ ما؛ نقدٌ لعدوانية الاستعمار والحداثة. إن تقويمِ إن الاستغراب يأتي في سياق نظرة علم معرفيةٍ بالنسبة إلى تشكُّل الحداثة بصفتها عرفاً خاصًا هو العلم/القوة السلطوية. مع ذلك، على الرغم من أن رؤيته مبنية على الأسس الفكرية لفووكو، لكن ليس معنى اتخاذ موقف حيال الغرب. نوع من إشارة الحداثة بصفتها بنية ناجمة عن العلم/القوة السلطوية ومرتبطة بالرأسمالية والاستعمار².

إن هذا الخطاب ذا الرؤية النقدية للغرب، حين يوضع على سطح البحث في العالم الإسلامي، يتحول إلى خطاب يتجاوز البني الفوقيَّة للموضوع، محاولاً دخول مستوياته التأسيسية والإيديولوجية. وكما أنَّ الغرب في الاستغراب غير النكديّ يصبح المحور الذي تدور حوله الأمور المعرفية بأجمعها، في هذه الرؤية النقدية يعرف الغرب بوجهه الإيديولوجيّ، المضاد للمفاهيم الإسلامية، وتوضع السيطرة الغربية والعدوانية الغربية موضع النقد الجديّ، الذي لا يزال دون ريب في مرحلة تشكُّله الأولى. حالياً هذه الرؤية موجودة إنما بشكلٍ مبعثر، وعلى نحو لا يتيح تقديم تعريف لها ضمن خطاب ما أو مقوله ما. بصورة عامة تشكُّلت في القرن المنصرم أشكال من المقاومة في البلاد الإسلامية في مواجهة الغرب، ابتداءً من مواقف السيد جمال الدين الأفغاني وأقرانه كالشيخ محمد عده ورشيد رضا، وسيد قطب، وصولاً إلى انتصار الثورة الإسلامية وما أعقبها من قضايا في العالم الإسلامي.

بناءً على هذا المذهب الفكريّ، الغربُ إيديولوجيًّا معاِد للمبادئ الإسلامية. لهذا السبب، يجب مقاومته لصون الهوية الإسلامية. على الرغم من فاعلية هذه الإستراتيجيا سياسياً، لكنها في مجال العلم والمعرفة بحاجة إلى الأرضية الملائمة وإلى الإنتاج العلمي. من هذه الزاوية، في نطاق العلم والمعرفة، الاستغراب النكديّ المبني على الأسس والمبادئ الإسلامية، إما أنه لماً يتشكُّل، وإما أنه عالج القضية بالفرق، ويفتقد إلى المعالجة المعمقة. إذا

¹. Venn, 2000. P. 2

². Ibid

تقرّر تعريف الخطوط العريضة لهذا المذهب الاستغرابي أي الاستغراب الندي في العالم الإسلامي، فالفرضيات التالية هي الأهم:

- 1 - "الغرب" موضوع يتجاوز الفكر المتعلّق بمنطقة جغرافية خاصة، إنما له مبادئه القيمية الخاصة.
- 2 - الغرب بنية قولية، مناقضة ليس فقط للمفاهيم الإلهية والإسلامية، وإنما أيضًا وفي الكثير من الحالات، لديها على العكس مما تدّعى، الكثير مما يُناقض المفاهيم الإنسانية.
- 3 - إمبريالية بعدٌ من أبعاد البنية الخطابية الغربية، متغلّلة في مختلف النواحي الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية.
- 4 - المفاهيم الإسلامية أفضل من المفاهيم الغربية سُبُل حلًّا للمسائل الإنسانية والاجتماعية، وبالأخص العدالة.

5 - لقد اتبّع العالم الإسلامي مؤخرًا نوع من الغربة السياسية والفكريّة، ومن الضروري أن يتخلّص من هذا الوضع. وما يحتاجه للخروج من هذا المأزق معرفة الغرب معرفة صحيحة.

5) الاستغراب الندي، المقاومة والتحديات:

من الممكن بشكل عام عدّ حركات المقاومة التي واجهت الغرب في القرن العشرين وليدة نوع من اللاوعي التاريخي والاجتماعي للتصدي للغرب، وهي من هذه الزاوية نوع من الاستغراب الندي. هذا الادّعاء سببه أيضًا أن الخطاب المسيطر على هذه المقاومات لا يعرف الغرب رسميًا، وإنما هو منتقدٌ حدّيًّا له. علمًا أن هذه المعرفة مرتبطة بسطح القضايا. تُعرَّف مقاومة الغرب ونقدّه في إطار الدفاع عن الهوية الوطنية والاقتصادية والإسلامية، ولكنّها تحتاج إلى ارتياح مباحث منهجة وعميقة معرفياً.

انطلاقاً من المباحث المطروحة آنفاً، يمكن القول إن الاستغراب الندي، نوع من الاستغراب الخاص بالدول الإسلامية في الشرق الأوسط. هذا النوع من الاستغراب يبحث عن نوع من العودة إلى الذات، ليتمكن من

الخلاص من سيطرة الغرب الفكرية والثقافية. يعرّف إدوارد سعيد الحركات التحررية في الشرق وفي العالم الإسلامي بـأنّها مقاومة لـإمبريالية الغربية، يقول:

من ناحية أخرى إنّ حركات التحرر التي قامت في القرن العشرين في الشرق وفي البلاد الإسلامية، كما يقول أنور عبد الملك، قضت فعليًا وعمليًا على أفكار المستشرقين ونظرياتهم، وفضحت الإمبريالية الغربية.¹

إنّ الاستغراب النقدي في العالم الإسلامي، هو الحجر الأساس المعرفي لـمثل هذه المقاومات؛ إنّه مقاومة تتصدى لأسس علم الوجود الغربي. فهناك مواطن خلاف بنبوية بين الإسلام والغرب في العديد من المقولات، ومنها تعريف الواقع وقوامه، وتعريف الإنسان والمهدف من خلقه، وهدف الخلية، وغير ذلك. هذه الفروقات غير موجودة بين الحضارات الأخرى والغرب، وإن وُجدت فـهي الحد الأدنى. إنّ مقاومة الدول غير الإسلامية للغرب تهدف بشكل عام إما إلى المحافظة على مصالحها الاقتصادية، أو إلى الدفاع عن هويتها الثقافية. أمّا مقاومة الإسلام للغرب. فـتتضمن وجهاً إيديولوجياً وقيميًّا. وعلى هذا الأساس، لا يقتصر التناقض بين الإسلام والغرب على عدم الاعتراف بالقيم الغربية الأساسية، وإنّما يذهب أبعد من ذلك، فهو على الصدر منها بنبوياً.

إنّ إدوارد سعيد يعارض تشكيل خطاب باسم الاستغراب، ويرى سبب ذلك في حاجة الشرق إلى تعرف الخطاب الاستشرافي، وعدوانيته، لتشكيل خطاب يسعى إلى خلقٍ شرق آخر يُدعى الغرب:

أُتمنّى قبل أيّ شيء آخر أن أُبيّن لـقارئي الأعزاء، أنه لا يجب أن يحتلّ الاستغراب مكان الاستشراف (أي لا يجب جعل الاستغراب ردًا على الاستشراف). فمن كان في الماضي يحمل عالمة "الشرقي" لن يعجبه هذا الفكر، وبما أنه كان يُحسب شرقًا هو مستعدٌ، وأكثر من الحد، لدراسة "الشرقيين" الجدد أي "الغربيين" الذين صنعتهم وصقلتهم بيديه. كأنّ معرفة الاستشراف معناها، كيف يمكن، وعلى أيّ نحو، أن ينجّرّ من ضلالته وأغواته هذه المعرفة، أو أيّ معرفة أخرى، في أيّ مكان وفي أيّ زمان، نحو الابتذال والانحطاط. واليوم إمكانية هذا الانحطاط أشدّ ربماً أكثر من أيّ وقت مضى.²

¹. إدوارد سعيد، م.س، ص 15.

². سعيد، م.س، ص 96.

ربما كان سبب معارضه إدوارد سعيد هو أنه يُعد الاستشراق نفسه بدليلاً من الاستغراب، فحين يعرف خطاب الاستشراك يفهم مقدار كبير من ماهية الغرب. مع ذلك يبدو أنّ العالم الإسلامي على نحوٍ خاصٍ بحاجة إلى خطاب الاستغراب. خطابٌ تحليلٌ موضوعه يفوق التحليلات الموجودة في الاستشراك.

من الواضح أنّ الاستغراب سيتيح للعالم الإسلامي فرصة جديدة. سيعزّز لنا ماهية الغرب، وعلومه، لا سيما علم الوجود وعلم المعرفة، ونحو ظاهرة تدعى "الغرب". مع ذلك هنالك تحدياتٌ وعوائق تواجه الاستغراب في العالم الإسلامي بشكل خاص؛ التحديات الأساسية في هذا المجال هي:

- 1- مكانة الاستغراب وأجواؤه اليوم تختلف عن ظروف الاستشراك في القرن الماضي.
- 2- التصدّي للغرب تصدّي ظاهرة مسلحة بالعلوم والفنون، وبشكل خاص العلوم الإنسانية المعقدة، المنظر لها. لذا، فإنّ الغرب ظاهرة معقدة، هلامية ومتعددة الوجوه.
- 3- العالم الإسلامي يواجهه فقرٌ في التنظير، وهذا الفقر النظري أدى إلى أن يبقى الموقف المتّخذ في مواجهة الغرب محصوراً في إطار المواضيع القيمية، بدلاً من أن يكون مبنياً على أسسٍ نظرية مدوّنة، مرتكزة على مباحث علوم المعرفة والوجود والمنهج. ولا يمكن الشروع بتعرّف الغرب، اعتماداً على المواقف القيمية الخضة.
- 4- النظريات الجديدة في الغرب، عثرت على حيزٍ نهضويٍّ فكريٍّ، وهذه النهضوية معرفتها ليست بالأمر السهل. إنّ استخدام الأنماط اللاخطية (Nonlinear) والمنطق المشوش أو الضبابي (Fuzzy logic) والنظرية السلكية أو الخطية (String theory)، ونظرية التعقيد (Complexity)، ونظرية الفوضى (Chaos theory) في التحليلات الاجتماعية، والأنمط المقولبة المبنية على هذه النظريات، قد أثاحت كلّها للغرب الفرصة كي يكون تعرّفه أمراً صعباً بالنسبة إلى العالم الإسلامي والشرق.
- 5- الاستغراب كما أشرنا من قبل مفهوم مختلف عن الاستشراك. فهو قبل أن يكون عملاً عدائياً، عمل دفاعيٌّ بشكل عامٍ للمحافظة على هويتنا وصونها، ولهذا الأمر سببان: 1) الغرب، أصلًاً موضوع وظاهرة عدائية، و2) عرف الشرقُ الغربَ من موضع دوينيّ (من حيث التنظير وتعرّف المباحث العلم معرفية وما شابهها...).

وهل يامكان من هو في وضع متدينٍ تعرّف عدوانية جمودة؟ الجواب عن هذا السؤال ليس سهلاً، أو هو على الأرجح جوابٌ سلبيٌّ.

6- إنَّ أرضية الاستغراب النقدي الإسلامي، تختلف عن أرضية الاستشراق. ففي الوقت الراهن، حيث يتموضع العلم والمعرفة في الغرب وفي الفكر الغربي، يحتاج الاستغراب النقدي إلى أنْ يُفصلَ عن تلك الحاضنة، وإلى طرح أرضية مختلفة وحاضنة محلية، لتقديم خطاب مختلف عن العلم والفكر الغربيين الموجودين في الاستشراق. فمعرفة الغرب تحتاج إلى معرفة أبعاده كُلُّها ومن بينها الاستشراق. مع ذلك يجب أنْ يُفصل الاستغراب النقدي من حيث كونه مبنياً على مفاهيم قيمية خاصة عن أرضية الاستشراق ذات المفاهيم القيمية الخاصة بها (العدوانية الغربية، والثقافة الغربية)، وإيجاد أرضية مختلفة لطرح القضية ومنهج التحقيق، ووضع النظريات. هذه الأرضية من أهم احتياجاتها الأولية معرفة الغرب الوافية، بأبعاده كُلُّها ومن ضمنها الاستشراق.

6) طرح أفق جديد:

في عصرنا، الجهاد الفكريُّ حاجةٌ ملحّة، لنصدِّ بواسطته الاحتياج الكاسح الفكريِّ والثقافيِّ المتعدد الألوان والأشكال لذواتنا ومجتمعاتنا. وهذه المسؤولية المهمة تقع على عاتق العلماء والمفكّرين والباحثين المسلمين، كي لا تكون على الأرض فتنة ويكون الدين كله لله¹. هذه المقالة ترى إلى الاستغراب النقدي موضوعاً معقداً، وأهم المسائل المتعلقة به قضية معرفة الغرب معرفةً دقيقة. هذه المعرفة يجب أنْ تُحرف عن التعريف الجغرافيِّ (مثل معرفة أميركا الشمالية أو الجنوبيّة أو الغربية)، باتجاه معرفة الغرب بصفته أرضية معرفية خاصة. تغيير الاتجاه يتطلّب تعرّف النظريات الغربية في المجالات المختلفة، من التاريخ والفلسفة إلى علم النفس وعلم الاجتماع والمنطق، وغير ذلك من العلوم، ومن ضمنها علم الاستشراق. إنَّ الأفق الجديد البديل يتضمن الاستراتيجيات التالية لإيجاد استغراب نقديٍّ في العالم الإسلامي:

1- يجب أن يحافظ الاستغراب النقدي على ما لديه من أخلاق المقاومة المبنية على القيم الإسلامية، وفي الوقت عينه يجب أنْ يوجّه اهتمامه إلى المستويات الأكثر تأصيلاً أي إلى علم معرفة المقاومة.

¹. دسوقي، م.س، ص227

2- من الضروري تعرّف الحاضنة الحالّة للعلمانيّة التي يقوم علم المعرفة الغربيّ يإنتاج وإعادة إنتاج المعرفة في داخلها.

3- تعرّف النظريّات الغربيّة، من النظريّات الكلاسيكيّة في العلوم المختلفة وصولاً إلى النظريّات الجديدة.

4- تعرّف النظريّات الجديدة التي تؤكّد بشكل عام على الأنماط اللاحطيّة والهامميّة، التي يصعب حتماً تعرّف أسسها العلم وجوديّة.

5- للاستغراب وجهٌ إيجابيٌّ أيضاً، وهو مبدئياً الإجابة عن سؤال: ما هو "الشرق" أي الإسلام والترااث الإسلاميّ، وما هي المسافة الفاصلة بينه وبين مُثله وتطلعاته.

6- الاستغراب النقدي في العالم الإسلامي يحتاج إلى عمل تنظيريٍّ معرفيٍّ واسع مصدره "نحن". ومع الأخذ في الحسبان الفقر في النظريّات، نحن نحتاج إلى وضع نظريّات في جميع فروع العلوم الإنسانية.

7- العلم الغربيّ، لا سيّما علم الاستشراق يؤدّي دور عجل السامرّيّ، وحين نتمكنّ نحن من العثور على علم استغراب دقيق، لا نعود بحاجة لأن نتغذّى من هذا العجل. لذا فإنَّ أرضية الاستغراب النقدي تحتاج إلى مفاهيم خاصة بنا في ما يتعلق بعلم الوجود وعلم المعرفة وعلم الإناسة وعلم القيم، أي إلى "نظريّات إسلاميّة" بشكل عام. إذاً علم الاستغراب تعوزه النظرية.

7) النتيجة

إنَّ موضوع علم الاستغراب يواجه حالياً بالنسبة إلى أيٍّ حضارة، لا سيّما بالنسبة إلى الحضارة الإسلاميّة تحديّاً وأصوليّة تُدعى العلمانيّة والغربيّة. إنَّ الغرب بنية عدوانيّة هجوميّة نقلت عناصر هويّتها إلى جميع مفاصل المجتمعات وعروقها، ومن ضمنها الحالات العلميّة والمعرفيّة. فإذا اعتمدها الاستشراق، فإنَّ تلك المواجهة لن تفضي إلى أيٍّ نتيجة، ولن تتمخض عن شيء، لأنَّ الغرب كعجل السامرّيّ، الذي أذهل الجميع سحرُ الجواهر التي صُنِع منها، وحاجات هذا العالم الإنسانيّ التي يلبّيها في الوقت الحاضر حاجات صناعيّة. وطالما أنَّ المجتمعات كلّها، ومن ضمنها المجتمعات الإسلاميّة، تتغذّى من حليب هذا العجل ولحمه، فإنَّ أيَّ نظرية نقدية لن تفضي إلى أيَّ نتيجة. لن يُحسب الاستغراب في العالم الإسلاميّ هويّة فكريّة ومعرفيّة

مستقلة، إلا حين يخرج من الشبكة الفضفاضة التي اصطاده الغربُ بها، الشبكة المتعلقة والمرتبطة بها كلّ الأمور والشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. لذا فإن الاستغراب النقدي يحتاج إلى شبكة متربطة من المفاهيم والبني الإنسانية والاجتماعية، بإمكانها أن تطرح من دون الحاجة إلى حلٍ عجل السامري بنياً معرفياً حديثاً، ينافس الاستشراق؛ بعبارة أخرى يجب أن يكون الاستغراب النقدي مستقلاً في أموره كلّها عن الغرب، ليصبح قادراً على أن يتعرّف الغرب بصفته موجوداً مستقلاً وهوية مستقلة. لا يعني هذا حتماً إنكار اكتشافات الغرب وإبداعاته العلمية والمعرفية. فالغرب له وجهان عامان شاملاً، أحدهما الطبيعي، وجه العلم والمعرفة، الآخر وجه الإيديولوجي. يجب أن يعرف الاستغراب الانتقادي وجوه الاختلاف، في هذه الحالة سيتشكل طرح ابستيمولوجي اسمه "الاستغراب النقدي".

المصادر والمراجع:

- افتخار زادة، محمود رضا، "مقدمة عن خدمة الاستشراق وخيانته" مقالة منشورة في سير تاريجي اندیشه وارزیابی شرق شناسی [المسار التاريجي للفكر الاستشرافي، وتقویمه]، طهران، منشورات هزاران، 1376ش [1997م].
- إیمان، محمد تقی، وأحمد کلاته ساداتی، "منهجیة العلوم الاجتماعية في الإسلام، لحة عن نظرية مسعود العالم تشودهاري"، مقالة منشورة في مجلة روش شناسی علوم و انسان [منهجیة العلوم الإنسانية]، قم: مركز بحوث الحوزة والجامعة، العدد 63، 1398ش [2010م].
- إیمان، محمد تقی، وأحمد کلاته ساداتی، "حوله في الإيديولوجيا والعلم"، مقالة منشورة في مجلة معرفت فرهنگی واجتماعی [المعرفة الثقافية والاجتماعية]، العدد 4، 1389ش [2010م].
- إیمان، محمد تقی، وأحمد کلاته ساداتی، "دراسة تطبيقية حول مسؤولية العلوم الاجتماعية في الإسلام والغرب"، مقالة منشورة في مجلة روش شناسی علوم انسان [منهجیة العلوم الإنسانية]، قم: مركز بحوث الحوزة والجامعة، العدد 69، 1390ش [2011م].

- إيمان، محمد تقي، وأحمد كلاله سادati، "منهجية العلوم الإنسانية لدى المفكرين المسلمين" (عرض نظر)، *أئمذج من علم المنهج في العلوم الإسلامية*، قم: مركز بحوث الحوزة والجامعة، 1392 ش [2013م].
- حوادي آملي، عبد الله، *معرفت شناسی در قرآن* [علم المعرفة في القرآن]، قم، منشورات إسراء، 1378 ش [1999م].
- زاهد، سعيد، وأحمد كلاله سادati، "اسلمة العلم لدى عطاس وفاروقi (دراسة تطبيقية)"، *مجلة مطالعات معرفتی در دانشگاه اسلامی* [دراسات معرفیة في الجامعة الإسلامية]، 1391 ش [2012م]، العدد 50، ص 16.
- زماني، محمد حسن، آشنائی با استشراق و اسلام شناسی غربیان [تعرف الاستشراق وعلم معرفة الإسلام لدى الغربيين]، قم، منشورات المصطفى الدولية، 1388 ش [2009م].
- دسوقي، محمد، سیر تاریخی و ارزیابی اندیشه شرق شناسی [المسار التاريخي للفكر الاستشرافي، و تقويمه]، ترجمه بالفارسية محمود افتخار زاده، طهران، منشورات هزاران.
- سعيد، إدوارد، *شرق شناسی؛ شرقی که آفریده غرب است* [الاستشراق؛ الشرق الذي خلقه الغرب]، ترجمه بالفارسية أصغر عسکری خانقاہ وحامد فولادوند، طهران، 1361 ش [2082م]، مؤسسة مطبوعات عطائي.
- شایگان، داریوش، *افسون زدگی جدید* [خرافة الحياة الجديدة]، ترجمه بالفارسية فاطمة ولباني، طهران، 1386 ش [2007م]، نشر و تحقيق فرزان روز.
- گلشنی، مهدی، *از علم سکولار تا علم دینی* [من العلم العلماني إلى العلم الديني]، طهران، 1388 ش [2009م]، مركز بحوث العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية.

Ahiska, M. (2010). Occidentalism in Turkey, questions of Modernity and National Identity in Turkey Radio-Broadcasting, London: I. B. Tauris Publishers.

Choudhury, M. A (1995). 'The Epistemic-Ontic Circular Continuity World View of Tawhidi Methodology in the Natural and Social Sciences', in M. A. Choudhury (ed.), *The Epistemological Foundations of Islamic Economic, Social and Scientific order*, Vol. 4. Ankara: Statistical, Economic and Social Research and Training Center for Islamic Countries.

Choudhury, M. A. (1997). *(Money in Islam; A Study in Islamic Political Economy*, London and New York: Routledge.

Choudhury, M. A. (1998). *Studies in Islamic Sciences*, London: Macmillan.

Choudhury, M. A. (2006). 'Belief and knowledge formation in the Tawhidi uperspace', *The Koranic Principle of Complementarities Applied to Social and Scientific Themes, Science and Epistemology in the Qur'an*; Lewiston, NY: The Mellen Press.

Choudhury, M. A. (2007). *The Universal Paradigm and Islam World-System Economy, Society, Ethics and Science*, World Scientific Publishing Vo. Ltd. British Library Cataloguing in-Publication Data.

Cole, J. R. (1992). Invisible Occidentalism: eighteenth- century Indo-Persian constructions of the West, *Iranian Studies*, No, 25.

Jafari, M. F. (1992). 'Counseling Values and Objectives: A comparison of Western and Islamic Perspective', A Paper was presented at National Seminar on Islamic Counseling, Selangor, Malaysia, 17 December 1992, published in AJISS; Vol. 10, No. 3.

Kamali, M. H. (2003). 'Islam, Science and Rationality: A Brief Analysis', *Islam & Science*; Vol. 1, No. 1.

- Said, E. (1977). *Orientalism*, London: Penguin
- Sardar, Z. (1977). *Science, Technology and Development in the Muslim World*, New Jersey: Croom Helm, London: Humanities Press.
- Snodgrass, J. (2003). Presenting Japanese Buddhism to the west. *Orientalism, Occidentalism, and the Columbian Exposition*, Chapel Hill: the University of North Carolina Press.
- Tavakoli- Targhi, M. (2001). *Refashioning Iran; Orientalism, Occidentalism and Histography*, st Antony's Series, Oxford.
- Venn, C. (2000). *Occidentalism, Modernity and Subjectivity*, London: Sage Pub.